﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

في اقترانِ التَّرهيب بالتَّرغيب كمالُ التَّربية

لَمّا وصَفَ الآخِرةَ بصِفاتٍ توجِبُ الرَّغبةَ العَظيمةَ لأولي الألبابِ فيها؛ وصَفَ الدُّنيا بصِفةٍ توجِبُ اشتِدادَ النُّفرةِ عنها[1].

ولَمّا أخبَرَ سُبحانَه بقُدرتِه على البَعثِ؛ دَلَّ عليها بما تتكَرَّرُ مُشاهَدتُه مِن مِثلِها[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: (سلك) أصلٌ يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ، بالفَتْحِ: مَصْدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَكَ؛ أيْ: أدْخَلْتُهُ فيهِ فدَخَلَ، وكلُّ شيءٍ أدْخَلْتَهُ في شيءٍ فقد سَلَكْتَهُ فيه، واللهُ يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ؛ أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه[3]، ومعنى ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: فأدخلهُ وأجراهُ عيونًا في الأرض[4].

2) ﴿يَنَٰبِيعَ﴾: جمع يَنبوع، يُقال: نبعَ ينبعُ نبعًا ونبوعًا؛ أي: ظهَرَ[5]، واليَنْبوعُ: الجَدْولُ الكثيرُ الماءِ، ومَنابعُ الماءِ: مَخارجُه[6]، ومعنى ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أي: عيونًا في الأرض، وأحدها ينبوع، وهو ما جاشَ من الأرض[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 439.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نبع).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 13.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276.

3) ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾: أصله: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامه، ومنه قولهم: اخْتَلَفَ النّاسُ في كذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ؛ أي: مختلفون؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهم يُنَحّي قولَ صاحبه، ويُقيمُ نفسه مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[1]، واختلفَ الشَّيئان: لم يتَّفقا ولم يتساويا، والاختلافُ: عدمُ الاجتماع على رأيٍ أو موقفٍ أو حكم... إلخ، كأنَّ كلًّا يذهبُ إلى ما جعله الآخرُ خَلْفه[2]، والاختلافُ والمخالفة: أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلافُ أعمُّ من الضّدّ؛ لأنّ كلَّ ضدّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدّين[3]، والمرادُ بـ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ في الآية: لم يتّفقا في اللَّون.

4) ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: أصلُ (لون) سَحْنَةُ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ: اللّونُ لَوْنُ الشَّيْءِ، كالحُمرَةِ والسَّوادِ، ويُقالُ: تَلَوَّنَ فُلانٌ: اخْتَلَفَتْ أخْلاقُهُ[4]، ووَرَدَ في القرآن الكريم في مواضعَ كان الكلامُ فيها على اختلافِ ألوانِ بعض ما خلقَ اللّهُ في الطَّبيعة، كالجبالِ والنَّباتِ والإنسان، ويُعبّر بالألْوانِ عن الأجناسِ والأنواع، يُقال: فلان أتى بالألوانِ من الأحاديث، وتناول كذا ألوانًا من الطَّعام[5]، ومعنى ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: في الأصنافِ والكيفيّاتِ والطَّبائعِ والطُّعوم وغير ذلك[6]، ولكلّ صنفٍ من الزَّرعِ ألوانٌ مختلفةٌ في أطوارِ نباته وبلوغهِ أشدَّهُ[7]، وأعراضٌ مختلفةٌ من الحمرةِ والصُّفرةِ وغير ذلك[8].

5) ﴿يَهِيجُ﴾: أصلُ الهَيَجان: شدّةُ الحركة، فالهاءُ والياءُ والجيمُ أصْلانِ صَحيحانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى ثَوَرانِ شَيْءٍ، والآخَرُ عَلَى يُبْسِ نَباتٍ، فالأوَّلُ: هاجَ الفَحْلُ هَيْجًا وهياجًا، وهاجَ الشَّيْءُ: ثارَ، والثّاني: هاجَ البقلُ يَهيجُ طالَ واصْفَرَّ وأخذَ في اليُبس، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي: ثمّ يطولُ[9] ويغلُظُ ويرتفعُ، ويبسُ من بعد خضرته[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(3) الراغب، المفردات: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لون).
(5) الرّاغب، المُفردات: (لون).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 436.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 527.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (هيج).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.

6) ﴿مُصْفَرًّا﴾: الصُّفْرَةُ: لونٌ من الألوانِ التي بينَ السّوادِ والبياض، وهي إلى السّوادِ أقرب[1]، وقوله: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: فتراهُ من بعد خُضرته ورطوبته آخِذًا في الجفافِ، ويبسَ فصارَ أصفرَ[2].

7) ﴿حُطَٰمًا﴾: (حطم) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ كَسْرُ الشَّيْءِ، والحُطْمَةُ: السَّنَةُ الشَّديدَةُ؛ لأنَّها تَحْطِمُ كُلَّ شَيْءٍ، والحَطْمُ: كسرُ الشَّيء، مثل الهشمِ ونحوه، ثمّ استعملَ لكلّ كسرٍ متناهٍ، والحُطام: ما يتكسّرُ من اليُبسِ، وهو معنى قوله هنا: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾[3]؛ أي: ثمّ يجعلُ ذلك الزّرعَ بعدما صارَ يابسًا فُتاتًا متكسّرًا باليًا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في سَوقِ آياتِ اللهِ لرحلةِ إنزال الماء تثبيتٌ للمؤمنين وحجّةٌ على المعاندين

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سرعةَ زوالِ الحياةِ الدُّنيا: ألمْ تَرَ أنَّ اللّهَ أنزَلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأدخَلَه في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، ثمَّ يُنبِتُ به زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ، ثمَّ يُصابُ هذا الزَّرعُ بالجَفافِ، فتَراه مُصفَرًّا مِن بَعدِ اخضِرارِه ونَضارتِه، ثمَّ يَجعَلُه اللّهُ فُتاتًا مُتكَسِّرًا؟! إنَّ في ذلك لَذِكرى لأهلِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف وضرب المثل:

استِئنافٌ مَسوقٌ للعظةِ والاعتبار أو للتّنويه بهدي القُرآنِ

قولُه سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استئنافٌ مسوقٌ للعظةِ والاعتبار؛ إمّا لتمثيلِ الحياةِ الدُّنيا في سرعةِ الزَّوالِ وقُربِ الاضمحلالِ بما ذُكِرَ من أحوالِ الزَّرعِ في نموِّه واخضراره، ثمَّ يُبسِه وزواله؛ ترغيبًا عن زخارفها وزينتها، وتحذيرًا من الاغترارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 277، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حطم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 277، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.

بزَهرتِها، وتوقيفًا للسّامعِ على ما يَعتبرُ به من أفعالِ اللّه الدّالّةِ على فناءِ الدُّنيا[1]، وإمّا للاستشهادِ على تحقُّقِ الموعودِ من الأنهارِ الجاريةِ من تحتِ الغُرفِ بما يُشاهَدُ من إنزالِ الماءِ من السَّماءِ، وما يترتّبُ عليهِ من آثارِ قدرتِه تعالى وأحكامِ حكمتِه ورحمتِه[2].

ويحتملُ أن تكون الآيةُ استِئنافًا ابتدائيًّا انتُقِلَ به إلى غَرَضِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، وما احتَوى عليه مِن هُدى الإسلامِ، وهو الغَرَضُ الَّذي ابتُدِئَتْ به السّورةُ، وانثَنى الكَلامُ منه إلى الاستِطرادِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: 2] إلى هنا؛ فهذا تَمهيدٌ لقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: 22]، إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: 23]، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القُرآنِ، واهتداءِ المُؤمنينَ به، والوَعدِ بنَماءِ ذلك الاهتداءِ؛ بحالةِ إنزالِ المَطَرِ ونَباتِ الزَّرعِ به واكتِمالِه[3]، أمّا قوله: ﴿يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ فهو إدماجٌ؛ للتّذكيرِ بحالةِ الممات.

الغرض من الاستفهام في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تـقـريـرُ الـلـهِ للعبادِ بدلائلِ قدرتِه الموجبةِ للإيمانِ به

الاستفهامُ في صدرِ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تقريريٌّ، والرُّؤيةُ بصريَّةٌ[4]، وصالحةٌ لتناولِ الرُّؤيةِ العلميّةِ معًا، ومُحالٌ هنا فصلُ إحداهما عن الأخرى، والمعنى: اللّه يقرّرُ عبادَه بهذه الحقائقِ العظيمة، والمعنى: قد رأيتَ واتّضحَ لكَ، ويدعوهم لمعرفةِ مكانةِ النّعمِ فيها، وتقديرِ المُنعِمِ بها حقَّ قدْرِه، فيؤمنون به ولا يكفرون، وهذا يتناسبُ مع عَجُزِ الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ويضافُ إلى التّقريرِ معانٍ أخرى، وفي مقدّمتها الامتنانُ على العبادِ، والتّعريضُ بأهلِ الكفرِ الَّذين لم يُلقوا بالًا للاعتبارِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 194.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 376.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

بما ذُكر، ولفتُ الأنظارِ إلى دلائلِ قدرةِ اللّه الموجبةِ للإيمانِ به، والامتثالِ لِما يأمرُ به أو ينهى عنه[1].

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية مادّةً وصيغةً:

تجدُّدُ مَشاهِدِ حياةِ النّباتِ، والاعتبارُ بها متجدِّدٌ بتجدُّدها

عبّرَ بالرُّؤية دون العلم في الآية؛ لاتّساع دلالةِ لفظ الرُّؤية؛ إذ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعينِ أو القلبِ، وإذا عُدّيَ إلى مفعولين اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيّ بحاسّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقلِ[2]، أمّا لفظُ العلم فيدلّ على الإدراكِ والمعرفة.

والتَّعبيرُ بصيغة المضارعة لإفادةِ تجدّدِ رؤيةِ ما هو مشاهَدٌ من إنزالِ الماءِ من السَّماء، وسلْكِهِ ينابيعَ في الأرض، وإخراجِ أنواعِ الزَّرعِ المختلفة، وهيجانها، واصفرارها، وجعلها حُطامًا؛ ليكون دليلًا واضحًا مستمرًّا في كلّ حينٍ على تفرّدِ اللّهِ بالإلهيّة وعظيمِ قدرته على البعث، وفي تجدّدِ الرُّؤية تجدّدٌ للتَّقريرِ بهذه الحقائق.

ولمعرفةِ مكانةِ النّعمِ المذكورة وتقديرِ المنعم، وتجدّدِ الامتنانِ على العباد، والتّعريض بأهلِ الكفر والعناد.

ولإفادةِ تصويرِ رؤيةِ مَشاهدِ حياةِ النَّبات في الأرض المتجدّدة، بما يكون أدعى للاعتبارِ بمشاهدَ ذهبتِ الألفةُ بجدّتها وما فيها من عجائبَ في كلّ خطوةٍ من خُطواتها، ولتحقيقِ هذا التَّصوير أطنبَ بذكرِ السَّماء رغمَ أنّ إنزالَ الماءِ لا يكونُ إلّا من السَّماء[3].

المراد بالخطاب في ﴿تَرَ﴾:

تقريرُ اللهِ لدلائل قدرته شاملٌ لكلِّ مكلّفٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لكُلِّ مَن يَصْلُحُ للخِطابِ؛ أي: تصلحُ منه الرُّؤيةُ والتّأمُّلُ؛ لأنّ المرئيَّ مشهورٌ، وليسَ المرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا[4]، وإنْ كان الأصلُ في

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 420.
(2) الراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).
(3) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 223.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

الخطاب أنْ يكونَ لمعيّن، وقد يتركُ إلى غيره ليعمّ كلَّ مخاطب، وفي هذا إشارةٌ إلى وضوحِ الحجّةِ وقوّتها، ويحتملُ أنّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، وكُلُّ بَشَرٍ داخِلٌ معه في معناه[1]، ولكن في تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ حثٌّ على تأمّل هذا الدَّليل؛ تنبيهًا على عظمته[2].

دلالة التَّوكيد بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

مبالغةٌ في بيانِ عظمةِ دلائلِ قدرةِ الله على إنزالِ المطر وإنباتِ النَّبات

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ وباسميّة الجملة التي تَدلُّ على الثَّبوتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِه؛ فإنزالُ اللهِ للماءِ من السَّماءِ ثابتٌ دالٌّ على قدرته سبحانه، فالتَّوكيدُ لأنّ مضمونَ الخبرِ من الآثارِ العظيمة الدّالّةِ على قدرةِ اللهِ سبحانه، والتي من حقّها أنْ تُصاغَ بأساليبَ عظيمةٍ مثلِها؛ ليُكافئَ الشَّكلُ المضمونَ.

الغرض من التَّعبير بالاسم الجليل:

من لـه كـلُّ صفاتِ الكمالِ قادرٌ على إنزالِ المطرِ وإنباتِ الزَّرع

في التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال تربيةٌ للمهابةِ، ومبالغةٌ في تقديرِ قدرته على هذا الخلقِ من دورةِ حياةِ النَّبات، وعلى البعثِ؛ فهو الَّذي له كلّ صفاتِ الكمال والقدرة[3]، أنزلَ من السَّماء ماءً بقدرته القاهرة.

دلالة التَّعبير بالخبر جملةً فعليَّة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إنزالُ اللهِ الماءَ من السَّماء أمرٌ متحقّقٌ متأكّدٌ ومشاهَدٌ

أتى البيانُ الإلهيّ بالخبر في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ جملةً فعليّة؛ لإفادةِ تقويةِ الحكم - وهو إنزالُ اللهِ للماءِ من السَّماء وما ترتّبَ على ذلك - وتوكيدِه، بسببِ تكرارِ الإسناد؛ فقد وقعَ الفعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ خبرًا عن المسندِ إليه؛ وهو ﴿ٱللَّهَ﴾، ووقعَ كذلك - أي: الفعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ - في الوقتِ نفسه مسندًا إلى الضَّميرِ المستتر العائدِ على اللهِ، فكأنّ الحكمَ هنا ذُكرَ مرَّتين؛ مرّةً حين

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 526.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.

أُسندَ الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره المستترِ العائدِ إلى المبتدأ، بخلافِ ما لو تأخّرَ المسندُ إليه فقيل: (أنزلَ اللّه)، فلا يحدثُ هذا التّكرار، بل يحدثُ الإسناد مرّةً واحدة فقط.

وقد أتى الفعلُ بصيغة الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الوقوعِ وتأكّده، فهو واقعٌ مشاهَدٌ قد عاينوه، ويدلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تعني: ألم تعلم، أو ألم تخبر، والإعلامُ والإخبارُ يكونُ عن شيءٍ حدثَ وانقضى.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ابتدائيّة؛ فإنّ المطرَ يبتدئ من السَّماء، أو من جهتها؛ أي: من السّحاب، ومنه إلى الأرض؛ لأنّ ماءَ المطرِ يتكوّن في طبقاتِ الجوّ العليا الزَّمْهريريَّة عند تصاعدِ البخارِ الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البخارُ كثيفًا - وهو السَّحاب - ثمَّ يستحيلُ ماءً[1].

ابتداءُ نزولِ المطرِ من السَّحابِ المتكوّن في السَّماء

معنى اللّام ودلالتها في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

اللّام في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، وهي السَّماء المعهودة التي ينزلُ منها المطر، وهي ما علا الإنسانَ، فالسَّماءُ هنا اسمٌ لأعلى طبقاتِ الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار[2].

نزولُ المطرِ من أعلى طبقاتِ الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار

فائدةُ ذكرِ قيدِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

في كلام اللّه تعالى على إنزالِهِ المطرَ بأنّه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إطنابٌ؛ إذ المطرُ لا ينزلُ إلّا من السَّماء، وفائدةُ هذا الإطنابِ التّذكيرُ بنعمةِ إنزالِ المطر وقدرةِ اللّه على ذلك، وتصوّرُ هذا الإنزال؛ ليكونَ المشهدُ كاملًا؛ بدءًا من إنزالِ المطر، ومرورًا بسلوكِهِ ينابيع في الأرض، وإنباتِ النَّباتِ وارتفاعه واخضراره إلى أنْ يصبحَ حطامًا؛

تصوّرُ المشهدِ كاملًا أقوى حضورًا في الذّهنِ وأكثرُ تأثيرًا في النّفس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 398.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 398.

فهذا أقوى حضورًا في الذّهنِ، وأكثر تأثيرًا في النّفس، ولا سيَّما أنّ الآيةَ خُتمتْ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به ﴿مَآءً﴾:

قُدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَآءً﴾، فلم يقلْ: (أنزل ماءً من السَّماء) باعتبارِ كونِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مبدأً لنزولِ الماء، أو لتشريفِه، فالسَّماءُ لا يستمسكُ الماءُ فيها إلّا بقدرةٍ قادرةٍ تقهره على ذلك، وللاهتمامِ بالمقدّم والتَّشويق إلى المؤخّر؛ لأنَّ الذِّهنَ عند تأخيرِ ما حقُّه التّقديم يبقى مترقّبًا له مشتاقًا إليه؛ فيتمكّن لديه عند وُروده عليه أيَّما تمكُّن.

الاهتمامُ بمبدأ نزولِ المطر، والتَّشويقُ للنّازلِ، مع التّنبيه على قدرةِ المُنزِل سبحانه

الغرض من تنكير ﴿مَآءً﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيّ ﴿مَآءً﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ في سياقِ الامتنانِ والاستدلالِ على قدرةِ الله؛ للدّلالةِ على التّكثيرِ والتّفخيمِ والتّعميم، فهو ماءٌ عظيمٌ كثيرٌ مباركٌ يعمُّ نفعُه كلَّ شيء، فهو - فضلًا عن كونه سببَ استمرارِ الحياة - سببٌ لكلّ نعمة، كما دلّ لفظُ ﴿مَآءً﴾ هنا على التّبعيضِ وبيانِ النَّوعيّة؛ أي: نوعًا من الماءِ وهو المطر.

ماءٌ كثيرٌ مباركٌ نازلٌ من السَّماءِ يعمُّ نفعُه كلَّ شيء

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ، وقد أفادتْ معنيين بلاغيَّين؛ هما ترتيبُ السَّلْكِ على الإنزالِ، وتعقيبُه عليه، بما يدلُّ على قدرةِ الخالق سبحانه، وفي هذا التَّرتيبِ والتّعقيبِ تصويرٌ رائعٌ للواقعِ المحسوس الَّذي ألِفَهُ النّاسُ في حياتهم.

في ترتيبِ السَّلْكِ على الإنزالِ وتعقيبه عليه تصويرٌ رائعٌ للواقعِ المحسوس

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل (سَلَكَهُ) بصيغة الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الوقوعِ وتأكّده، فهو واقعٌ مشاهَدٌ قد عاينوه، فبعدَ إنزالِ اللّهِ تعالى للمطرِ يُدخِلُه في الأرضِ على شكلِ ينابيع، وكذلك في التَّعبير بالماضي تناسبٌ مع الفعل (أنزل) الَّذي جاء بصيغة الماضي.

سَلْكُ الماءِ بعد نزولِه من السَّماءِ متحقّقٌ؛ فهو واقعٌ ومُشاهَدٌ

موقع ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في الإعراب ودلالته:

الماءُ النّازلُ من السَّماءِ يُدخَلُ ويُنظَّمُ في الأرضِ ثم يخرجُ عيونًا

(يَنابيع) في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ؛ أي: سَلَكه في ينابيعَ؛ أي: في أمكِنةٍ يَنبُعُ منها الماءُ، أو مَفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ (سَلَكه) معنى (جعَلَه)؛ أي: جعله فيها عيونًا جاريةً[1]، أو مَنصوبٌ على الحالِ مِن الضَّميرِ في (سَلَكَه)؛ أي: فأجْراه عُيونًا في الأرضِ[2].

غرض تنكير ﴿يَنَٰبِيعَ﴾:

ينابيعُ عظيمةٌ وكثيرةٌ تدلّ على عظيمِ قدرةِ مَن سَلَكها

نكّرَ البيانُ الحكيم ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادةِ التّكثيرِ والتّنويعِ والتّفخيم؛ فهي ينابيعُ وعُيونٌ ومجارٍ كالعروقِ في الأجسادِ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، تدلُّ بأفرادها ومجموعها على عظيمِ قدرةِ اللّه سبحانه.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الماءُ النّازلُ من السَّماءِ ثابت مستقرّ متمكّن في جوفِ الأرض

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حرفُ جرّ يفيدُ الظَّرفيّة المكانيّة، ويدلُّ على أنّ الماءَ الَّذي نزلَ من السَّماءِ هو مستقرٌّ في جوفِ الأرض؛ غيّبهُ اللّهُ فيها؛ لينفذَ إلى أعماقٍ بعيدة، فهو بهذا يأخذُ وضعًا متمكّنًا ثابتًا قارًّا فيها، ويخزّنُ تحتَ طبقاتها، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المؤمنون: 18].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ﴾:

التّنبيهُ على تعظيمِ أمرِ إخراجِ النَّباتِ بعد نزولِ المطر متراخيًا

عُطِفَ قولُه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا﴾ بحَرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ، أو الزَّمان؛ وللتّنبيه على تعظيمِ الأمرِ فيما تلاها بأنّه محلُّ الشّاهد؛ لأنَّ إخراجَ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بعدَ إقحالِها أوقَعُ في نُفوسِ النّاسِ؛ لأنَّه أقربُ لأبصارِهم، وأنفعُ لعَيشِهم؛ إذْ هو المَقصودُ مِنَ المَطَرِ[3].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 525.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 60، والخراط، المجتبى: 3/ 1079، والنحاس، إعراب القرآن: 3/ 136.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُخۡرِجُ﴾ على خلاف النَّسق الماضي:

استحضارُ صورةِ إخـراجِ الـزَّرعِ بعد نزولِ المطر؛ إظـهـارًا لعظيم قدرة الله تعالى

التَّعبيرُ في قوله: ﴿يُخۡرِجُ﴾ بصيغةِ المضارع على خلافِ النّسقِ الماضي في قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَسَلَكَهُۥ﴾؛ للتركيزِ على محلِّ الشّاهدِ؛ وهو تجدّدُ إخراجِ الزّرعِ من الأرضِ وحدوثه حالًا فحالًا، ولقصدِ استحضارِ الصّورةِ في الذّهن واستمرارها، بما يُظهرُ عظيمَ قدرةِ اللّه تعالى أكثر[1]، فالقادرُ على إحياءِ الأرض بعد موتها وإخراجِ النَّبات قادرٌ على البعثِ بعد الموت.

معنى الباء، والغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول ﴿زَرۡعًا﴾:

الماءُ جعله اللهُ سببًا في إخـراجِ الزّرع

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا﴾ السَّببيّة، فالماءُ جعله اللّهُ سببًا في إخراجِ الزّرع، وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ ﴿زَرۡعًا﴾ من باب تقديم السَّببِ على المسبَّب، وهذا يتناسبُ مع ترتيبِ الآية من إنزالِ المطر أوّلًا ثم إخراجِ الزّرع.

الغرض من تنكير ﴿زَرۡعًا﴾:

زرعٌ كثيرٌ فخيمٌ ومـتـنـوّعٌ يـدلُّ على عظيمِ قدرةِ الَّـذي أخـرجـه سبحانه

أفادَ تنكيرُ لفظ ﴿زَرۡعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ التّعظيمَ والتّفخيمَ والتّكثيرَ والتّنويعَ لهذا الزّرع؛ فيشملُ كلّ ما يُستنبتُ؛ فهو زرعٌ كثيرٌ ومتنوّعٌ وفخيمٌ يدلُّ على عظمةِ قدرةِ اللّه سبحانه الَّذي أخرجه.

نكتة الإفراد في لفظ ﴿زَرۡعًا﴾ وبلاغة الإدماج فيها:

في الإدماجِ دلالةٌ عـلى قـدرةِ الله تعالى المطلقة

أفردَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿زَرۡعًا﴾ ولم يقلْ: (زروعًا)؛ لمحًا للأصلِ، وهو المعنى المصدريّ؛ أي: الإنباتُ؛ من إطلاقِ المسبّب ﴿زَرۡعًا﴾ وإرادة السَّبب (الإنبات)، لِما فيه من دلالةٍ على طلاقة قدرة اللّه تعالى، فألمحَ بالإفرادِ إلى السَّبب، وألمحَ باللَّفظ ﴿زَرۡعًا﴾ إلى المُسبَّب، فشملتِ الدَّلالةُ المَعْنيين معًا، وهذا من بديعِ الإدماج[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 421.

سرّ تقييد الزَّرع بالوصف بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾:

اختلافُ المسبَّبِ مع اتِّحادِ السَّببِ أعجبُ في الصَّنعةِ وأدلُّ على بديعِ القدرة

لَمّا كان اختلافُ المسبَّب مع اتحادِ السَّببِ أعجبَ في الصَّنعةِ وأدلَّ على بديعِ القدرة قيَّده بـ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾[1]، كما ألمحَ تقييدُ الزَّرع ﴿زَرۡعًا﴾ بالوصف ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ إلى كثرةِ أنواعه، وتبايُنِها في اللَّونِ والطَّعمِ والقيمةِ الغذائيّة، والتَّعبيرُ باسمِ الفاعل؛ للدّلالةِ على ثبوتِ ودوامِ هذا الاختلافِ في جميعِ أنواعِ الزّرعِ رغم كثرتها وتباينها.

نكتة إيثار الدَّلالة على التّباينِ باختلاف الألوان دون غيرها، ونكتة جمعها ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾:

في الألوانِ الكثيرةِ والمتنوّعة التي يخرجُ بها الزّرع دلائلُ على عظمةِ الخالق

آثرَ البيانُ القرآنيُّ الدَّلالةَ على التَّباينِ في الزّرع باختلافِ الألوانِ دون غيرها، فلم يقلْ: (مختلفًا طعومه أو أشكاله أو أحجامه أو فوائده الغذائيَّة)؛ لأنّ الألوانَ أظهرُ للنَّظرِ من تباينِ الطُّعوم والأشكال والأحجام، والفوائدِ الأخرى التي لا تكادُ تُحصر، وكذلك لاتّساعِ دلالةِ لفظ (لون)؛ "فإنّ اللَّونَ يُطلقُ على النَّوعِ ولو مَجازًا، يُقال: ألوانُ الطَّعام"[2]، قال في المفردات: "اللَّونُ معروفٌ، وقد يعبّرُ بالألوانِ عن الأجناسِ والأنواع"[3]، فالتَّعبيرُ بلفظ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ تناولَ أنواعًا كثيرة متضمّنةً لكيفيّاتٍ متعدّدةٍ، وفي مجيء لفظ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ مجموعًا إفادةٌ للتّكثير والتّنوّع، ممّا يعطي مزيدًا من الدَّلائل على قدرته سبحانه، حيث إنَّ جميعَ هذا الزَّرع يُسقى بماءٍ واحد، ويخرجُ الزّرعُ بهذه الألوان الكثيرة والمتنوِّعة.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

تراخي إخراجِ الزّرع بعد إنزالِ المطر أوقعُ في نفوسِ النّاس

عَطَفَ البيانُ الحكيمُ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لإفادةِ التّراخي الرُّتبي، كَشَأْنِها في عَطْفِ الجمل؛ لأنَّ إخراجَ الزّرع من الأرض بعد إقحالها أوقعُ في نفوسِ النّاس؛ لأنّه أقربُ لأبصارهم وأنفعُ لعيشهم؛ إذ هو المقصودُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 506.
(3) الراغب، المفردات: (لون).

من المطر[1]، فكان استعمالُ ﴿ثُمَّ﴾ لعطفِ الأخبارِ فيه إلغاءً للوازمِ الرُّتبيَّة بين إخراجِ الزَّرعِ وبين إنزالِ المطر بعد إقحالِ الأرض، حتى كأنّما يقعُ التَّقابلُ بين مرتبتين: الإقحالِ، والإخراجِ، فيُفضي الحالُ عند ذلك إلى التَّأثيرِ في النّفوس أيَّما تأثير[2].

دلالة التَّعبير بـ﴿يَهِيجُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

هـيـاجُ الـدُّنـيـا واستواءُ زهرتها يـنـطـوي عـلى بـــادرةِ فنائها وسرعةِ زوالها

لفظُ ﴿يَهِيجُ﴾ له أصلان: أحدهما يدلُّ على ثَوَرانِ شيء، والآخرُ على يُبْس نبات[3]، فيُبْسُ النَّباتِ مُؤْذِنٌ بثورته وانفصاله، وهذا موحٍ بأنّ هياجَ الدُّنيا، واستواءَ زهرتها الأخّاذَ الخلابَ ينطوي على بادرةِ فنائها، وسرعةِ زوالها، ودنوّ انقضائها، وفي ذلك إرشادٌ للعبادِ إلى عدمِ الاغترارِ بمتعِ الحياة الدُّنيا والرُّكونِ إليها، ففي التَّعبيرِ بالهيجانِ إشارةٌ إلى أنّ الخروجَ عن الحدِّ غيرُ محمودٍ في شيء من الأشياء، فإنّه يعودُ عليه بالنَّقص، فالإيقافُ بعد قوةِ الإشراف دالٌّ على القهرِ ونفوذِ الأمر[4].

وقد جاء اللَّفظُ بصيغة المضارعة الدّالّة على التَّجدّدِ والحدوث؛ لإفادةِ تصويرِ هيَجان الزَّرعِ وفنائه، وتجدُّدِ ذلك للرّائي؛ ممّا يكون له بالغُ الأثرِ في بيانِ حقيقةِ الدُّنيا وفنائها وتزهيدِ النَّفسِ بها.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾:

إسنادُ الهيَجانِ إلى الزَّرعِ مجازٌ والفاعلُ الرّياح

الزُّروعُ ذاتِ المواسم إذا نضجتْ جفّتْ أعوادها فخفّتْ، فترى تحريكَ الرّياحِ لها أبينَ وأظهرَ، وتسمعُ لحركاتها صوتًا ملحوظًا، ولذا عبّر البيانُ الحكيم بفعل ﴿يَهِيجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: يتحرّكُ الزّرعُ بعملِ الرّياحِ حركاتٍ تشبهُ هياجَ الهائجِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.
(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 131.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هيج).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

وثورةَ الثّائرِ من ذوي الحياة، ولذا فإسنادُ الفعل ﴿يَهِيجُ﴾ إلى ضميرِ الزَّرع (هو) مجازٌ عقليٌّ علاقته المفعوليّة، لأنّ الرّياحَ هي الفاعلُ لتحريكه وتمايله[1].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

هيَجانُ الزَّرعِ وانصرامه يترتّبُ عليه ويتسبّبُ عنه رؤيته مصفرًّا

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ عاطفةٌ تفيدُ التَّرتيبَ والتّعقيبَ، والسَّببيةَ، "فيتسبّبَ عن هيجه - وهو شدّةُ ثورانه في نموّه بعد التّمامِ بتوقيعِ الانصرامِ - أنّك تراهُ مصفرًّا"[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

رؤيةُ مشهدِ هيجانِ الزّرعِ واصفراره متجدّدٌ من المخاطَبِ وحاضرٌ أمامَ عينه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أسندَ القرآنُ فعلَ (الرُّؤية) إلى خيرِ الخلقِ ﷺ أو إلى المخاطَب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ للزّيادةِ في تعظيمِ هذا المعنى - وهو هيجانُ الزَّرعِ وفناؤه - وللحثّ على تدبّره[3]، وزادَ في هذا المعنى التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع (تراه) الَّذي يدلُّ على التَّجدّدِ والاستمرارِ، ويفيدُ التّصوير، فرؤيةُ مشهدِ هيجانِ الزَّرعِ واصفراره متجدّدٌ متكرّرٌ من الرّائي، فهو مشهدٌ حاضرٌ يراهُ المخاطَبُ أمامَ عينه في كلّ وقتٍ، ممّا يبعثُ على مزيدِ التَّفكُّرِ والتَّدبُّر فيه.

دلالة التَّعبير باسم المفعول ﴿مُصْفَرًّا﴾:

مشهدُ شدّةِ اصفرارِ الزَّرعِ بعد هيجانه دليلٌ على القدرةِ التّامّةِ للخالقِ سبحانه

عبّر النّظمُ الحكيم بصيغةِ اسم المفعول ﴿مُصْفَرًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ للدّلالةِ على ثبوتِ هذا الاصفرارِ لكلّ زرعٍ بعد هيجانه، وكذلك للمبالغةِ في اصفراره؛ ليعطيَ صورةً دقيقةً وواضحةً للتَّغيُّرِ الَّذي يحدثُ للزَّرعِ بعد أنْ يهيجَ، فيساعدُ ذلك في تصويرِ المشهدِ بشكلٍ حيٍّ وواقعيٍّ، حيث يتحوّلُ الزّرعُ من شدّةِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

الاخضرارِ إلى شدّةِ الاصفرار نتيجةَ هيجانِه؛ أي: الاصفرارُ حاصلٌ بسببِ هيجانِ الزّرع، وهذا كلّه وفقَ دورةٍ طبيعيَّةٍ للنَّبات، ممّا يدلّ أنّ لهذا الكون خالقًا، قدرتُه تامّةٌ في خلقِه وتدبيره سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾:

جعلُ الزّرعِ حطامًا بعد هيجانِه أمرٌ متجدّدٌ صورتُه حاضرةٌ للمُشاهِد

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن فعلِ الجعل بصيغةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾؛ توافقًا مع الأفعالِ الواردة بصيغةِ المضارع في الآية: (﴿يُخْرِجُ﴾، ﴿يَهِيجُ﴾، ﴿فَتَرَىٰهُ﴾) وللدّلالةِ على التَّجدّدِ والحدوث، فجعلُ الزُّروعِ ذاتِ المواسم كالقمحِ والشَّعير وغيرها حطامًا أمرٌ متجدّدٌ في دورةِ حياةِ هذه النَّباتات، وهي صورةٌ مشاهدةٌ للرّائي لا ينكرها أحدٌ، ففي إحضارِ الصّورةِ إلى الذّهنِ بليغُ الأثرِ في النّفوسِ الغافلةِ عن تأمّلِ عظيمِ خلقِ اللّهِ سبحانه.

الغرض من إسناد الفعل ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾ إلى الذّات العليّة:

كما الإخراجُ والحطامُ منه سبحانه فالمبدأُ والمصيرُ منه سبحانه

في قَولِه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ عُلِّقتْ هذه الحالةُ بجَعْلِ اللّهِ تعالى، كالإخراج؛ لكون السّياقِ لإظهارِ القدرةِ التّامّة[1]، ولكَونِ الإخراجِ والجعلِ مِنَ الآثارِ القَويَّةِ الدّالّةِ على عظيمِ قدرته ﷻ؛ إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في شَيءٍ مِن ذلك، وفي هذا إيذانٌ بأنّ المبدأ - وهو الإخراج - منه سبحانه، وأنّ المصير - وهو الحطام - منه سبحانه، أمّا ما بينَ المبدأِ والمصيرِ فقد أُسندتْ فيها الأفعالُ إلى فاعليها بإقدارِ اللّهِ لها على الفعل[2].

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾:

التّذكيرُ بحالةِ الموتِ هو المقصودُ من ذكرِ جعلِ الزّرعِ حطامًا بعد خضرته

في قوله: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ إدماجٌ؛ للتّذكيرِ بحالةِ الممات واستواءِ النّاس فيها من نافعٍ وضارٍّ[3]، فحالةُ جعلِ الزّرعِ حطامًا مُفتَّتًا بعدما خرجَ بألوانٍ مختلفةٍ تشبهُ حالةَ الموتِ عند الإنسانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

وفنائه بعدما كان حيًّا يتنفّس؛ إذ الآيةُ مسوقةٌ للدّلالةِ على قدرةِ اللّهِ على البعثِ بعد الموت.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمٗا﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾:

اختيارُ الألفاظِ بما يتناسبُ مع سياقِ الآيةِ بلاغةٌ قرآنيّة

بينَ قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمٗا﴾، وقوله في سورةِ الحَديد: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ [الحديد: 20] مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أتى في الزُّمر بلفظ ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾ وفي الحديد بلَفظِ ﴿يَكُونُ﴾ [الحديد: 20]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الزُّمَر) ورَدَتْ مَوردَ التَّنبيهِ على الاعتبارِ، وبالنَّصّيَّةِ على ذلك افتُتِحَت الآيةُ، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ فنسَبَ سُبحانه كلَّ حالةٍ من تقلُّباتِ الزَّرعِ وتَنقُّلاته إلى نفْسِه – من لَدُنْ خُروجِه ونَباتِه وما بعْدَ ذلك إلى تحطُّمِه – إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في إعادةِ شَيءٍ من ذلك، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فافتُتِحَتِ الآيةُ واختُتِمَتْ بالتَّنبيهِ على الاعتبارِ، فلمّا كان مَبْناها على ذلك ناسَبَ نِسبةُ الفعلِ إليه تعالى؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ﴾.

وأمّا آيةُ (الحديد) فوردَتْ مِثالًا للدُّنيا وغُرورِها، وإعراضِ الكافرِ عن سُرعةِ تَقلُّبِها وزَوالِها وفَنائِها؛ فلمّا قُصِدَ هنا المثالُ ناسَبَ هذا المقصودَ قولُه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ [الحديد: 20]؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في أوَّلِ الآيةِ النِّسبةُ للفاعلِ، اكتفاءً بما هو غيرُ خافٍ على كلِّ ذي عقلٍ سليم؛ فجَرى آخِرُها على ما يَجْري عليه أوَّلُها، كما جَرى في آخرِ آيةِ (الزُّمَر) من التَّنبيهِ على ما جَرى عليه أوَّلُها، وتَناسَبَ ذلك كلُّه، ولم يناسبْ – بِناءً على ما صُدِّرَت به كلُّ آيةٍ منهما – أنْ يقالَ في آيةِ الزُّمَر: (ثُمَّ يَكونُ)، ولا أن يقالَ في آيةِ الحديدِ: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ)، بلْ وردَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 1255 - 1256، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 426، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 495، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 219، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 407.

الغرض من التَّعبير بالمفعول الثّاني مصدرًا ﴿حُطَٰمًا﴾:

المبالغةُ في قدرته تعالى على جعلِ الزَّرعِ مُفتَّتًا متكسّرًا أدعى للتَّفكُّر والاعتبار

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ جاءَ المفعول الثّاني ﴿حُطَٰمًا﴾ بصيغة المصدر؛ لإفادةِ التَّأكيدِ والمبالغة في قدرةِ الله التامَّة سبحانه، فهو قادرٌ على جعلِ الزَّرع حطامًا مُفتَّتًا متكسّرًا بعد خضرته واشتداده، ممّا يدعو إلى التَّفكّرِ والاعتبارِ؛ فإنّ القادرَ على ذلك قادرٌ على إماتةِ الإنسانِ وفنائِه، وقادرٌ على بعثِه بعد الموت.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿حُطَٰمًا﴾:

تحوّلُ الزَّرعِ إلى حطامٍ حقيرٍ يدلُّ على عظمةِ قدرةِ الله

أفادَ تنكيرِ لفظ ﴿حُطَٰمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ التَّحقيرَ فهو حطامٌ كثيرٌ حقيرٌ، وفي ذلك دلالةٌ على عظمةِ قدرةِ اللّهِ سبحانه الَّذي سلبهُ الحياةَ، فجعلهُ حطامًا بعد أنْ كان زرعًا مختلفًا ألوانه، وهو من أظهرِ مواطنِ التّذكُّرِ والاعتبار في الآية.

نكتة الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

استئنافٌ يقرّرُ قدرةَ اللهِ على البعثِ بعد الموت

لَمّا تَمَّ هذا المِنوالُ البَديعُ الدّالُّ بلا شَكٍّ لكُلِّ مَن رآه على أنَّ فاعِلَه قادِرٌ على الإعادةِ لِما يُريدُ بعدَ الإبادةِ، كما قدَرَ على الإيجادِ مِن العَدَم، والإفادةِ لكُلِّ ما لم يكُنْ؛ جاءتْ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مستأنفةً؛ لتعليلِ وتقريرِ أنّ ما سبقَ دالٌّ على قدرةِ اللّهِ على البعثِ بعد الموت، ولهذا الغرضِ جاءتْ مؤكَّدةً؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ[1].

الغرض من جملة التَّذييل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾:

في التَّذييل خلاصةٌ ونتيجةٌ لِما سبقَ من الأطوارِ من مَبدَئِها إلى مُنتَهاها

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مُبَيِّنٌ للاستفهامِ التَّقريريِّ، وفَذْلَكةٌ للأطوارِ المُستَفهَمِ عنها؛ فهي إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ تفصيلًا[2] وتفريعٌ عنه وخلاصةٌ له ونتيجةٌ عنه؛ أي: إنّ كلَّ ما سبقَ من هذه الأطوار والأحوال من مَبدَئِها إلى مُنتَهاها ذكْرى بالدَّلالةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 551.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 250.

على ما يَغفُلُ عنه العاقِلُ من تَقريبِ البَعثِ وإمكانِه، مع الاستِدلالِ على انفرادِ اللّهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ[1].

بلاغة توالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بعدّةِ مؤكِّدات: ﴿إِنَّ﴾ التي تُفيدُ توكيدَ النِّسبةِ بين المسندِ والمسندِ إليه، واسميّةِ الجملة التي تدلّ على الثُّبوتِ والدَّوام، ولامِ التَّوكيد؛ لأنّ مضمونَ الخبر من الحقائقِ العظيمة التي يصوغها القرآنُ في أساليبَ عظيمةٍ مثلها، وللإيحاءِ بالاعتبارِ من هذه الآيات والعبرِ على وجهِ الإيجاب[2]، فكان كلُّ هذا التَّأكيدِ "للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ"[3].

الغرض من تقديم ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَذِكۡرَىٰ﴾:

فـي التَّقديمِ اهتمامٌ بالمقدَّمِ وتفخيمٌ له، وتشويقٌ للمؤخَّر

قدّم البيانُ الحكيم الجارَّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَذِكۡرَىٰ﴾، ولم يقلْ: (إنّ ذكرى لأولي الألباب في ذلك)؛ اهتمامًا بالمقدَّم - وهو المشارُ إليه ممّا ذُكر مِنَ الإنزالِ إلى آخرِ الأطوارِ - واعتناءً بشأنه وتفخيمًا له، لعلّ النّاس يقبلونهُ على تدبّرِ هذه الأطوارِ والأحوال والانتفاعِ بها دينًا كما انتفعوا بها دُنيا، وتشويقًا للمؤخَّر؛ وهو التَّذكُّرُ والاعتبارُ، ومراعاةً لفاصلة الآية.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في تشبيهِ المُشارِ إليه بالظَّرفِ والذِّكرى بالمظروفِ تفخيمٌ لشأنها

حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ يفيدُ معنى الظَّرفيّةِ المجازيَّة، ودخوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مؤذنٌ بأنّ في الكلامِ استعارةً بالكنايةِ، فقد شبَّهَ فيها المُشار إليه بالظَّرف، والذِّكرى بمظروفٍ في ذلك الظّرف؛ اعتناءً بها وتفخيمًا لشأنها[4]، فهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 423.

ذكرى متوغّلةٌ متمكّنةٌ في تدبّرِ هذه الأطوار من إنزالِ الماء وسَلْكه ينابيعَ في الأرض وإخراجه زرعًا وهيجانه وتحوّله بعد ذلك إلى حطامٍ، وذلك لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد.

الغرض من التَّعبيرِ باسم الإشارة مصحوبًا بلام البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتحديدِ المشار إليه:

تفخيمُ المشارِ إليه وتعظيمه وعلوّ رتبته؛ لدلالته على كمالِ قدرةِ الخالق سبحانه

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إلى جميعِ ما ذُكر قبله؛ مِنَ الإنزالِ إلى آخرِ الأطوارِ، واستعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُستخدمُ للبعيد لتفخيمِ المُشار إليه وتعظيمه، ولِلإيذانِ ببُعدِ مَنزلته في الغَرابةِ والدَّلالةِ على ما قُصِدَ بَيانُه[1]، تنزيلًا لبُعد المكانة منزلةَ بُعد المكان، فالمعنى المشارُ إليه يدلّ على كمالِ قدرته سبحانه، وتمامِ حكمته، حيث أنشأه مُدرَّجًا من حالٍ إلى حالٍ تُغايرُ الأولى؛ وأظهرَ في كلٍّ منها صنعًا وحكمًا يتجدّدُ فيها لأولي الأبصار[2]، وفيه إشارةٌ أيضًا على علوّ رتبته في الدَّلالةِ على قدرةِ اللّهِ على البعث بعد الموت.

نكتة تنكير (ذِكْرَى):

تذكيرٌ عظيمٌ واضحٌ على قدرته سبحانه على الخلق والبعثِ وما يكون بعده

أفاد تنكيرُ (ذكرى) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ التَّفخيمَ والتَّعظيم لها؛ أي: إنّ في ذلك الَّذي ذكرناه - من الإنزالِ إلى آخر الأطوار - تذكيرًا عظيمًا واضحًا على البعث وما يكون بعده لأولي العقولِ الصّافيةِ جدًّا[3].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لِأُولِي﴾:

ذكرُ مَشاهدِ إنزالِ المطر وباقي الأطوار؛ لأجلِ التَّفكُّرِ والاعتبار

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حرفُ جرّ، وهي بمعنى (كي) أو (لأجْلِ)، والمعلَّلُ هو ما في مدلولِ الآيةِ من مضمّنِ معنى الدَّلالةِ على قدرةِ اللّه تعالى، فهذا المَذكورُ مِنَ الإنزالِ إلى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 507.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

آخِرِ الأطوارِ تذكيرٌ لكلّ العقلاء، إلّا أنّ المنتفعينَ بهذه الذِّكرى هم أولو العقولِ الصّافية جدًّا؛ أي: إنّ اللّهَ تعالى ذكر هذا الدَّليلَ - من إنزال المطر وإخراجِ الزَّرع إلى أنْ يجعله حطامًا - لأجلِ التَّفكُّر والاعتبارِ وتذكُّرِ قدرةِ الله على البعث، فمن لم يتذكّر ولم يعتبرْ فليس من أولي الألباب.

نكتة تخصيص أولي الألباب بالذِّكرى دون غيرهم:

خَصَّ اللّهُ تعالى أولي الألباب في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون غيرهم؛ للدّلالةِ على أنّه لا يتذكّرُ بهذه الدَّلائل إلّا أصحابُ العقولِ الصَّحيحة الخالصة السَّليمة من شوائبِ الخلل؛ فهم الَّذين ينتفعونَ بألبابهم فيهتدون بما نصبَ لهم من الأدلّة، وهم الَّذين استدلّوا فآمنوا، وفي هذا تعريضٌ بأنّ الَّذين لم يستفيدوا من الأدلّةِ بمنزلة من عَدِموا العقول[1].

الـــذيـــن لـم يستفيدوا من الأدلّةِ بمنزلةِ مَن عَدِموا العقولَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 379.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»